الباب الرابع
الأخلاق والسياسة

ويتضمن فصلين:

الفصل الأول: الأفعال الإنسانية.

الفصل الثانى: المدينة الفاضلة.

الفصل الأول

الأفعال الإنسانية

ويتضمن:

تمهيد

١ - الأفعال الإنسانية وتصنيفها.

٢ - مراتب الحياة الأخلاقية - الفضيلة والرذيلة وأنواعها.

٣ - السعادة واللذة - أنواع اللذات - السعادة القصوى - طبيعة اللذة.

٤ - واجبات المتوحد.

تمهيد:

إذا كان ابن باجة قد عرف علم الأخلاق بأنه العلم الذى يشتمل على الموجودات الكائنة بإرادة وهى الفضائل والرذائل[1]. فإن معنى ذلك أن هذا العلم يتناول دراسة أفعال الناس بالقياس إلى مثل أعلى. إذ كيف يتسنى لنا أن نحكم على هذا الفعل أو ذاك بأنه خير أو شر؟ وكيف يتسنى لنا وضع قواعد عامة لسلوك الأفراد وتصرفاتهم بحيث تعينهم وعلى الاقتراب من الفضيلة والابتعاد عن الرذيلة ما لم يكن هناك مثل أعلى نحاكيه فى أحكامنا ويعيننا على هذا التمييز بين الأفعال المختلفة؟؟[2].

ولهذا نجد ابن باجة يهتم أولاً وقبل كل شىء بالأفعال الإنسانية التى تمثل موضوع علم الأخلاق وصنف هذه الأفعال ورتبها فى سلم تدريجى مميزًا بينها وبين أفعال الكائنات الأخرى (حية أو غير حية) موضحًا عنصر الاختيار الذى تتميز به الأفعال الإنسانية والذى على أساسه تتحدد المسئولية والثواب والعقاب.

كما أنه اهتم بتصنيف تلك الأفعال تصنيفًا يقودنا إلى الفحص عن الغايات وأى الغايات يليق بالإنسان ومدى قرب هذه الأفعال أو بعدها عن غاية عليا ينظر إليها علم الأخلاق على أنها غاية الغاية أو غاية فى حد ذاتها وهى ما يعبر عنها بالمثل الأعلى.

ولما كانت الأفعال الروحانية متصلة بالصور الروحانية أو على أوجه مختلفة من الاتصال فقد قسم ابن باجة تلك الأفعال بحسب تلك الصور الروحانية إلى عدة أقسام وقد أشرنا عرضًا إلى الصور الروحانية فى ذلك الفصل نظرًا لأننا قد توسعنا فى شرحها فى الباب الخاص بنظرية المعرفة.

كما أننا نجده يصنف تلك الأفعـال تصنيفًا يطابق به المراحل الثلاث التى يمر بها عمر الإنسان.

ولم يكن اهتـمام ابن باجة بالأفـعال الإنسـانية ودراستـها فى مـختلف نواحيها إلا لكى يحدد الفضائل والكلمات التى يسـعى الإنسان لتحقيقها ولقد كان سـعى ابن باجة الدائب فى مـختلف كـتبه ورسـالة البحث عن السـعادة القصوى والفضائل النظرية والعملية التى يمكن أن تؤدى إليها وكان أبدًا رجل العقل الذى يجعل كـمال الإنسان فى كمال عـقله قبل أن يكون فى أى شىء آخر.

فإذا كانت هذه هى سمات علم الأخـلاق عند ابن باجة فبماذا يمكن أن يتصف؟؟

إن علم الأخلاق عند ابن باجة علم مـعيارى يضع معيارًا مـعينًا أو مثلاً أعلى أمام السلوك الإنسانى ثم يحكم عليه إن كان خـيرًا أو شرًا بمقدار اقترابه أو ابتعاده عن هذه الغاية. وهكذا تتحدد الفضـائل والرذائل طبقًا لقواعد عامة أخلاقـية لا توجد إلا بوجـود الفعل الفاضل، والأفـعال الأخلاقـية هى التى تؤدى إلى المجتـمع الفاضل أو المدينة الفـاضلة، فالفضـيلة تبعًـا لذلك ليست مجرد معرفة بالفضيلة وقدرة نظرية على التمييز بين الخير والشر كما كان يزعم فلاسفة الـيونان وبنوع خاص سقراط وأفلاطون. وإنما هى سلوك وأفـعال قبل كل شىء(٣).

والواقع أن ابن باجة لم يهتم بوضع القواعـد الأخلاقية للسلوك وتحديد الغاية الأخلاقية كغاية قصـوى من أجل إقامة دعائم المذهب الأخلاقى فحسب فنظرته لم تكن نظرة فـردية يبغى من ورائها إصـلاح الفرد فـقط. وإنما تعدى تلك النظرة الفردية وخرج بها إلى النظر الـكلية الشاملة تلك النظرة التى كان

هدفهـا الأساسى إصلاح المجـتمع. إذ أن صـلاح المجتمع يعـود إلى صلاح أفراده أما فساده وانحلاله فيـرجع إلى فساد أفراده وانحلال أخلاقهم. ولذلك نجد ابن باجة قد جـعل الغاية القصوى لكل من الفرد والمجـتمع واحدة. فإذا كان الفرد صـالحًا استطاع أن يبلغ السعـادة القصوى والاتصال بعـالم ما فوق فلك القمر. وتلك هى الغاية الرئيسيـة التى حددها ابن باجة للمدينة الفاضلة وإن كانت المدينة تعد وسـيلة تساعد الفرد على بلوغ تلك الغـاية، أما إن كان الفرد طالحًا أو المدينة فاسدة. قصر الفرد عن إدراك الغاية القصوى التى يسعى لها.

١ - الأفعال الإنسانية وتصنيفها:

إذا كان التدبيـر عند ابن باجة يعنى ترتيب جملة من الأفعـال نحو غاية مقـصودة، فقد عنى فـيلسوفنا بتحليل هذه الأفـعال. فبين أن؟ هذه أفـعال. أفعال أضطرارية. وأفعال غريزية، وأفـعالاً اختيارية، وأن كل ضرب من هذه الأفعال إنما يصـدر عن ضرب من الكائنات. فأى أوجه شبـه أو اختلاف بين الجمـاد، والحيوان، والإنسـان وذلك من حيث الأفعـال التى تخص كل كائن منهم؟ وما هى؟ مميزات تلك الأفعال؟؟

يقـول ابن باجة إن بـين الإنسان والحـيـوان رابطة كالتـى بين الحيـوان والنبات، والتـى بين النبات والمعادن الجـامدة، فـالأفعال الضـرورية هى التى تلحق الجماد لأنها تحصل له اضطرارًا، والأفـعال الغريزية هى التى تحصل من الحيوان لأنهـا تقع بالغريزة، والأفعال الاختيـارية هى التى تحصل من الإنسان لأنها تصدر عن اختيار قـائم عن روية وتفكير "كل حى فإنه يشارك الجمادات فى أمـور، وكل حيـوان فإنه يشـارك الحى فقط فى أمـور، وكل إنسان فـإنه يشارك الحيوان غير الناطق فى أمور"(٤).

فإذا حـاولنا تحديد الأفـعال التى تخص الإنسـان بما هو إنسان لـوجدنا بعض الصعوبة فى ذلك إذ أن الإنسان يعد من أعـقد الكائنات الحية واللاحية خاصة وأنه يتميز بقوى متـعددة تشمل جميع القوى المنسوبة للكائنات الأخرى "كل إنسان فله أجناس من القـوى، أولها الفكرية، والثانية القـوى الروحانية الثلاث، والثـالثة القوى الحـساسة، والرابعة القـوة المولدة، والخامسـة القوى الغاذية وما يعد منها، والسادسة القوى الأسطقسية"(٥).

وهكذا فالإنسان يخـتص بالجزء الأكبر من القوى ويحوز أعـلاها مرتبة وهى القوة الفكرية وأدناها مرتبة وهى القوى الأسطقسية. ثم نجد الحيوان وقد أخذ قدرًا كبيـرًا أيضًا منها حيث تتمثل فيه القوة الغـاذية والمولدة والنامية كما يشـارك الإنسان فـى النفس النزوعـية ثم يأتى الـنبات فى المرتبـة الدنيـا من الكائنات الحية ويتمتع بالقوة الغاذية.

وهكذا نجد أن الإنسـان بمشاركته للنـبات فى بعض قواه كالقـوة الغاذية والمولدة والنامية نجده يأتى بأفعال شبيهة بأفعال هذه القوى. وبمشاركته لأفعال الحيـوان غيـر الناطق فى قوة الحس، والتـخيل والذكـر بالإضافـة إلى القوى الأخرى التى ذكرناها نجده يأتى بأفعال تشبه أفعال تلك القوى، ولكن الإنسان يتميـز عن سائر تلك الكائنات بما لديه من قوة فكرية وهى التى تجـعله إنسانًا وإن كان هو وجميع الكائنات الحية يشترك مع الكائنات الجامدة فى خضوعهم لأفاعيـل الطبيعة. فـالكائنات الجامدةوالكائنات الحيـة تلحقها بعـض الأفعال الضرورية مثل الهبوط إلى أسفل طوعًا والصعود إلى فوق قهرًا(٦).

فـإذا كان الإنسـان مـا هو إلا خليط من القـوى الحيـوانيـة والإنسانيـة والضرورية فما هى سمات الفعل الذى يصدر عنه وما هى خصائصه؟؟

يقـول ابن باجـة" . . . كل ما يوجـد للإنسـان بالطبع ويخـتص به من الأفعال فهى باختـيار، وكل فعل يوجد للإنسان باختياره فـلا يوجد لغيره من

أنواع الأجسام. والأفعـال الإنسانية الخاصة به هى ما يكون باخـتياره فكل ما يفـعله الإنسان باخـتـياره فـهو فـعل إنسـانى وكل فعل إنـسانى فـهو فـعل باختيار "(٧).

وهكذا نجد أن الفـعل الإنسانى يتميـز بأنه يصدر عن اختيـار قائم على فكر وروية، كما أنه يتميز عن غيره من الأفعال الجمادية والحيوانية بأن له غاية فالإنسان الذى يهـرب من شىء أزعجه أو يكسر حجراً لأنه تعـثر به أو يكسر عوداً لأنه خدشه فهـذه كلها أفعال للإنسان من جهة النفس البهـيمية. أما إذا كسر الإنسان الحجر أو ألقاه بعيداً حتى لا يتـعثر فيه إنسان غيره كان فعله هذا فعلاً إنسانيًا قصد من وراءه غاية سامية.

فكأن الفعل البهيمى هو الذى يتقدمـه فى النفس الإنفعال النفسانى فقط مثل التـشهى أو الغـضب أو الخوف. أما الفـعل الإنسانى فـهو الذى يتقـدمه الفكر، سواء تقدم الفكر انفعال نفسانى أو أعـقبه، كما أن الباعث على الفعل الحيـوانى هو الغريزة التى للنفس البـهيميـة على حين أن البـاعث على الفعل الإنسانى هو الرأى والاعـتقاد. فإذا أكل إنسـان ما القراسيـا، وكان يشتهـيها واتفق له عن ذلك أن لان بطنه وصح بدنه وكان محتـاجًا إليه، فإن هذا فعل بهيمى بالذات إنسانى بالعرض. أما إن أكلهـا لا لأنه يشتهيها بل لأنه يريد أن يلين بطنه واتفق مع ذلك أن أعجب بطعـمها فهذا الفـعل إنسانى بالذات وهو بهيمى بالعرض(٨).

وأكثـر أفعال الإنسـان إنما تتألف من عناصر بعـضها حـيوانى وبعضـها إنسـانى ويندر أن تكون أعمـال الإنسان حـيوانيـة على الإطلاق إنما يغلب أن تكون إنسانية وما ذلك إلا لأن الإنسان مؤلف من جزئين من جسد له حاجات ضرورية لا يمكن إهمالها أو تجاهلهـا، ولو أنها أهملت لما استطاع الإنسان أن يعيش ثم مـن جزء عاقل يتـمثل فى النفس الناطقـة التى تهيمـن على الجسم

وتدبر شئونه فى اعتـدال من أجل ذلك فإن العقل الإنسانى لا يمكن أن يكون إنسانيًا محضًا ولا حيوانيًا محضًا وإنما هو خليط من الإنسانى والبهيمى وبقدر تغلب أحدهمـا على الآخر تتـحدد مرتبة الإنـسان. "فلذلك من كانت نفـسه البهيمية تغلب نفسه الـناطقة حنى يكون ينهض عن شهوته المخالفة لراية دائما فهو سوء البيهميه خير منه"(٩).

ويفـاضل ابن باجة بين الـفعل البـهيـمى والفـعل الإنسانى بأن الفـعل البهيمـى قلما يوجد خاليا من الإنسانى لأنه لابد للإنسـان أن كان على الحال الطبيعية أن يفكر كيف يفعل ذالك إذ أن النفس البهيمية سامعة ومطيعة للنفس الناطقة بالطبع إلا فى الإنسان الذى هو على غير المجرى الطبيعى مثل ألسبعى الأخلاق الذى أفرط عليـه الغضب. أما الفعل الإنسانى فـقد يوجد خلود من الفعل البهيمى وفى هذه الحالة يمكن أن يتصف فعله بالإلوهية(١٠).

وهكذا يتضح لنا أن الأفـعال التى تخص الإنسان منها جـمادى، ومنها بهـيمى، ومنهـا إنسـانى وكل واحـد من هذه الأفعـال جنس لما تحـته فـمن خصـائص الفعل الجمـادى أنه بالاضطرار وليس فيـه شىء من الاختيـار، اما الفـعل البهـيمى فـهو ايضـا من اجل شىء إلا أنه من تلقـائنا. وأما الفـعل الإنسانى فإن الغـاية هى التى تحدده وذلك يكون باختيـار وابن باجة يتفق فى ذلك مع أرسطو الذى يقرران الغايات ايا كانت هى هدف مـقاصدنا الأخلاقية وجميع أفعالنا(١١).

أ - تصنف الأفعال النسانية طبقا لعنصر الاختيار:

إذا كان الإنسـان يختص بقـوى وأفعـال تشمل جـميع أفعـال الكائنات وقواها مثل القوة الفكرية والقوى الروحانيـة الثلاث، القوة الحساسة، والمولدة والغاذية، والأسطقسية.

فقد تعددت أفـعاله بتعدد قواه وأصبح كل فعل إمـا خاضعا للاضطرار وأما للاخـتيار فـيها أصـلا، ومنها قوى يدخل الاخـتيار فـى كل عنصر من عناصرها، ومنها قـوى ثالثة تاخذ من الاضطرار والاختيار بنسـب قد تتفاوت فيها بينما. أمكن لنا أن نحدد طبيعة هذه الأفعال بناء على تحديد قواها وقدرة الإنسان على الاختيار فى كل منها.

ولا شك أن ابن باجـه قد اهتم بتـصنيف هذه الأفـعال كى يحـدد نوع الأفعال التى يمكن أن تنطبق عليها الـفضيلة إذا أن الفضيلة لا تنطبق إلا على الأفعال الاختيارية. تلك الأفعـال التى يقوم بها الإنسان بكامل إرادته وحريته فيتـصف إما بالخير أو الشـر وهنا تحدد الفضيلة كمـعيار للأخلاق كـما يقول أرسطو(١٢).

فالقوة الاسطقسية لا اختـيار فيها اطلاقا وهى باضطرار صرف. ولذلك كان الفعل الجمـادى باضطرار ولا اختيار فيه، فـهو ليس من اجل شىء أصلاً ولذلك ليس لنا أن نفـعله لان الحركه فـيه ليست مـن تلقائنا(١٣) " والإنسان لانه من الأسطقسات فتلحقه الأفعال الضرورية التى لا اختيار له فيها كالهبوط من فوق والاحتراق بالنار وما جانسه "(١٤).

أما أفعـال القوة الغاذية فهى ليـست باختيار أصـلاً ولا باضطرار صرف والفرق بينها وبين أفعال القوة الأسطقـسية أن المحرك فى الغاذية إنما يوجد فى جسم وهو يحتـاج إلى المتحرك (الغذاء) وإذا كانت أفعـال القوة المولدة تشابه أفعال القوة الغاذية إلا أنها تتميـز عنها بأنها أقرب إلى الاختيار، ذلك لانه إذا كان من الضرورى وجود الغذاء من أجل قوام الجسد. فإنه ليس من الضرورى القاءالبذر فى انثى تولده.

وأما أفعال القوة الحساسة فإن كانت انفعالات كانت بالاضطرار. إلا أن منها بعض الأفعال بالاختيار مثل البصر. وبعضها بالاضطرار مثل اللمس لكن

باستطاعة الإنسان إذا ارد أن يفعل عنها مثل أن يهرب من الحر. ويتدثر من البرد.

وأما أفعال القوى الروحانية الثلاث (الحس المشترك - التخيل - الذكرة) فهى أفعال وانفعالات والانفعالات ينطبق على الحس. وأما الأفعال الكائنة عنها فهى اختيارية إذا كانت إنسانية أما إذا كانت بهيمية فهى باضطرار.

فإذا ما نظرنا إلى القوة التى يتميز بها الإنسان عن سائر الكائنات الاخرى وهى القوة الفكرية وجدنا أن الصور والتصديق فيها بالاضطرار. لكن كل قوة من القوى التى ذكرناها سابقا فيما عدا الأسطقسية. كان للنطقية فيها مدخل والاختيار فيها مدخل. ولما كانت الأفعال الإنسانية هى الختيار كان كل فعل من أفعال هذه القوى يمكن أن يكون للناطقة فيه مدخل.

واذا كنا قد حددنا عنصر الاختيار فى كل قوة من القوى الإنسانية السابقة فما هى خصائص الفعل الإنسانى اذن وما مدى الاختيار فيه؟؟

يقول ابن باجه "الأفعال الإنسانية منها ما يكون كل جزء منها باختيار ولذلك يمكن للإنسان أن يقف حيث يشاء من ذلك الفعل كالحياكة والسكافة وما شاكل هذه الصنائع. ومنها ما الاختيار اكثر اجزائها غير أن الغاية فيها لشىء اخر وما يشارك فيه قوة ليست تاطقة كالملاحة والفلاحة ومنها ما يوجد للإنسان بدؤها فاذا فعل ماله أن يفعل تولى الفعل محرك آخر إلى تمام الفعل كالايلاد، فإنه إذا ألقى الإنسان المنى فى الرحم لم يكن عن اختياره كون الجنين ولا من أمره شىء"(١٥).

فابن باجة يشير إلى أن هناك أفعال يقوم بها الإنسان بمحض إرادته وباختياره وتلك الأفعال تتسم بالحرية إذ إن فى مقدور الإنسان أن يقف عن تنفيذ ذلك الفعل وقتما شاء وسيتضح لنا فيما بعد أن ذلك النوع من الأفعال يجعل الإنسان مسئولا عن أفعاله وهنا تحدد المسؤلية ويقرر الثواب والعقاب

كمـا أن هناك أفعـالا لا ارادة له فيهـا ولكن يقوم بهـا بالاضطرار هذه الأفعـال الاضطرارية ليس لنا أن نفعـلها لان الحركـة فيـها ليست من تلـقائنا وهنال تنعدم المسؤلية عنا.

الثواب والعقاب:

إذا كان نوع الإنسان أو مـاهيته المعقـولة عبارة عن مجـموع القوى التى يتصف بها الإنسان والتى توجد خارجة عنه لم تتغير بتغيره. ففى الإنسان إذن معنى سرمـدى هو كلى الإنسان ومعنى كائن فاسد هو لحـاق هذه الصفات أو القوى " . . . . وذلك أن طبيـعة الإنسان هى فيما يـظهر، كالواسطة بين تلك السرمـدية وهذه الكائنة الفـاسد والأمر فـى الإنسان هذه الحال عـلى المجرى الطبيعى "(١٦) وهذا يدعونا إلى التـساؤل أى أفعـال الإنسان يخـضع للثواب والعقاب؟؟ هـل هو الفعل البهيـمى أم الفعل الاختيـارى. وأى قوى الإنسان تخضع لماهية السعادة والشقاء؟؟

فإذا كـان الإنسان من ناحيـة يشعر بـأنه حر الإرادة يعمل مـا شاء وأنه مسـئول عن عـمله فإن هذه المسـئوليـة تقتضى الحـرية، وهنا يصبـح للثواب والعقـاب معنى، وهو يرى أن الله عـالم كل شىء وأحاط علما بما كـان وما سيكـون ولكن معنى ذلك أنه فطر جـميع الفـاعلين أن يفعلوا والمنفـعلين أن ينفعلوا كما كان يقول الغزالى فى آخر كتابه "مشكاة الانوار" إذ أن هذا القول يجعل الإنسـان غير مـسئول عن أفـعاله وبالتالى تنتـفى المسئوليـة ولا يصبح للثواب والعقاب أى معنى "(١٧).

يقول ابن باجه "وظاهر أن هذا الفـعل الذى يكون واحد هو ثواب الله ونعمتـه على من يرضاه من عباده. فلذلك ليس هو المـثاب والمعاقب. بل هو الثواب والنعـمة على مـجموع قـوى النفس؟، وانما الثواب والعـقاب للنفس النزوعية وهى الخاطئة والمصيبة "(١٨).

معنى ذلك أن ابن باجـه يرى أن الأفعال التى تخضع للثـواب والعقاب هى الأفعال البهـيمية تلك الأفعال الصادرة عن النفس النزوعـية وهى الخاطئة والمصيبة.

أما الأفعال الإنسانية التى تتـصف بالاختيار والروية ويكون الفكر دعامة أساسية من دعائمها فإن هذه الأفعال هى الخالدة وتكون السعادة للقوة الفكرية أو للعقل بالفـعل إذ هو ثواب الله ونعمـته على من يرضاه من عـباده وذلك يقول ابن باجـة" فمن أطاع الله وعمل مـا يرضاه أثابه بهذا العـقل وجعل له نوراً بين يديه يهتدى به، ومن عصاه وعمل ما لا يرضاه حجبه عنه. فبقى فى ظلمات الجهالة مطبقا عليه حتى يفـارق الجسد محجوبا عنه سائر فى سخطه. وتلك مـراتب لا تدرك بالفكرة. ولذلك تمم الله العلم بهـا بالشريعـة. ومن جعل له هذا العقل. فاذا فارق البـدن بقى نورا من الأنوار يسبح الله ويقدسه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا "(١٩).

ب - تصنيف الأفعال الإنسانية طبقا للصور الروحانية:

لما كانت الأفـعال الإنسـانية مـتصلة بالصـور الروحانيـة أو على أوجه مختلفة من الاتصال فقد صنف ابن باجة الأفعال الإنسانية بحسب تلك الصور الروحانية إلى الأصناف الاتية:

١ - هناك أفعـال لا غاية من ورائها إلا وجود الصـور الجسمانيـة فقط كالأكل والشرب والدثار والمسكن. فإذا كـانت غاية العقل الإنسانى الاتذاذ من هذه الامور فقط كـان فعله جسمانيا مـحضا، ولم يكن لصوره الروحانـية أى قدر ولا يشعر بهـا وذلك لإفراط جسمـانيته وهؤلاء هم الذين أخلدوا فى الأرض وفيـهم قوله عز وجل "واتل عليهم نبأ الذين أتـيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعـه الشيطان فكان من الغـاوين. ولو شـئـنا لرفـعنا بهـا ولكنه أخـلد إلى الأرض واتبع هواه"(٢٠).

أمـا إذا أخذ الإنسـان من هذه الصـور الضـرورى فقط كـان طبيعيا وقصد بها تمام صورته الجسمانية"(٢١).

٢ - وهناك أفعال إنسانية تسـعى إلى الصور الروحانية. ولما كانت هذه الصور مـتعـددة ومخـتلفة أدى ذلك بالطبع إلى اخـتلاف الأفـعال وتنوعهـا. فمنها تتـجه نحو الـصور الروحانيـة الموجودة فى الحس المشتـرك وهذه الأفعـال إما مكتـسبة كـعناية بعض الناس بملبـسهم واختـيار أنواعها وألوانهـا وعنايتهم بالمسكن. ومنها أفـعال طبيعـية كمن يعتنى بشرف الأحساب.

ومنها أفعال تتجه نحو الصور الروحانية الموجودة فى التخيل. وهذه ايضا أصناف منهـا ما يقـصد به نوع من الانفـعال كلبـاس السلاح فى غـير وقت الحرب. ومنهـا ما يقـصد به الالتذاذ كـالتودد والبـر والهزل وحـسن الحديث وحفظ الأخـبار والأمثال والأشـعار. ومنها أفـعال تقصد الكمـال فقط وهى الفضائل الفكرية ومنهـا العلوم، والفضائل الشكلية كالسخـاء والنجدة وحسن المشاعر ومنها فضائل كاليسار وإفراط الغيرة.

هذه الأفعال التى للأصناف السـابقة من الصور الروحانية قد يقـصد بها الإنسان أن تولد فى النفس خشوعا فتعقـبه الكرامة وسائر الخيرات الخارجية، وقد لا يقصد منها أكثر من أن الإنسان يهـوى أن يفعلها فيحصل له عن فعلها كمال صورته الروحانية"(٢٢).

٣ - ومنها أفـعال ينال بها كمـال الصور الإنسانيـة التى ستكون له فى ذكـره بعد مـوته وهذه يؤثرها أكـثـر الناس لذاتهـا حتى ظن أنهـا السعـادة. والعرب تجد فى الذكر خـاصة ما لا تراه كثـير من الأمم ويرون أن الذكر بقاء المذكور ولذلك يقول الشاعر:

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال[٢٣]

٤ - وهناك أفعال لا غاية لها إلا تحصيل الصور الروحانية العامة (المعقولات) وهى أكمل الصور على الاطلاق ويجعلها ابن باجة فى مرتبة وسطى بين الصور الروحانية التى تمتزج بها الجسمانية وبين الصور الروحانية المطلقة التى ليس بها شائبة جسمانية (العقل الفاعل وما ينسب إليه)[٢٤].

جـ - تصنيف الأفعال الإنسانية طبقا لمراحل العمر:

يرى ابن باجة إن لكل مراحله يمر بها الإنسان أفعالا خاصة بها وهو يقسم عمر الإنسان إلى ثلاث مراحل. مرحلة نباتية - مرحلة حيوانية - مرحلة إنسانية.

١ - المرحلة النباتية (مرحلة الطفولة):

هذه المرحلة تبدأ منذ سن الطفولة وتمتد منذ ميلاد الإنسان إلى إن يتحرك الحركة التى تمكنه من حمل جسده إلى كل ما يشتهيه "فالأول من تلك يوجد له فى سن الطفولة وذلك من وضعه إلى إن يتحرك بجملة جسده إلى ما يشتهيه. فإنه ما دام كذلك فإنما يفعل عن النفس البهيمية"[٢٥].

فى هذه المرحلة نجد أن كل فعل من أفعاله بدافع من النفس الغاذية. حيث يكون طفلا رضيعا لم تحدث له بعد القوة الفكرية فيكون إنسانا بالقوة[٢٦] ولما كان الإنسان فى هذه المرحلة لا يستطيع أن يقوم بحاجاته بنفسه فقد كفلت الشرائع حمايته. وجعلت كفالته لوالديه " فإن السن الأولى فالصور الروحانية موجودة فيها بهذه الحال بالطبع لكل من يتكفل ابنه"[٢٧].

٢ - المرحلة الحيوانية (النفعية):

وهى مرحلة لاحقة للمرحلة السابقة وتبدأ من وقت "ما يتحرك إلى ما يشتهيه إلى وقت توجد له فيه الروية"[٢٨] وفى هذه المرحلة تكون حال الإنسان شبيهة بحال الحيوان غير الناطق وتكون السيطرة للنفس البهيمية التى تطبع الأفعال بطبعها. وهذه المرحلة قد تحتاج لكفالة الوالدين وقد لا تحتاج.

٣ - المرحلة الإنسانية:

وتبدأ منذ بدء الروية والتفكير عند الإنسان. وهنا تصبح القوة الناطقة هى المحرك له وبوجود ها يصبح الإنسان إنسانا بالإطلاق. فالقوى الفكرية هى التى توجه أفعال الإنسان وهى لا تحصل له إلا إذا حصلت المعقولات وبحصول المعقولات تحدث الشهوة المحركة للفكر وما يكون عنه وبذلك يكون الإنسان بالفعل[٢٩].

ولا تقتصر المراحل التى يمر بها الإنسان على المراحل السابقة فقط ولكنه يمر بمراحل ثلاثة لاحقة لمرحلة الشاب وهى: الكهولة - الشيخوخة - والهرم. ولكل مرحلة أيضا من هذه الراحل الصور الروحانية الخاصة بها والتى تناسب كل عمر من هذه الأعمار، وإذ لم يراع الإنسان القيام بالأفعال المناسبة لعمره والمنسوبة إلى القوى الخاصة به فى تلك المرحلة فانه يعد فى المرحلة الأولى من العمر وهى مرحلة الطفولة.

فإذا كان عدم قيام الإنسان بأفعال مناسبة لسنه مصدره نقص فى القوه فإن ذلك يعد نقص فى الطبع. مثل المعتوهين فإن المعتوه لا يستطيع أن يصل إلى مرحلة الرؤية والتفكير لنقص قواه العقلية فيظل فى المرحلة التى هى دون المرحلة العقلية أما إذا كان الإنسان له القوى ولم يفعل عنها كان هو والمعتوه سواء بسواء إذ لا فرق بينهما ويصح أن نقول أنه ليس معتوها بالذات ولكنه معتوها بالعرض أو كالمعتوه.

وهناك فئة ثالثة لديها القوى ويفعل عنها الإنسان ولكنه يظل يتوخى من أفعاله ما كان يتوخاه فى السن السابقة له فأفعاله فى تلك الحالة تعد أفعالا بهيمية حيث إنه يقوم بأفعال البهيمية على أتم وجه اذ أنه يستخدم فى قيامه بها الروية والتفكير(٣٠).

ولما كان كل شيء يسير على نظام محدد، فإن كل سن فى هذا النظام يعد توطئة للسن اللاحقه له والسابقة تعد خادمة للاحقة. وهكذا. فالأقل شانا يتبع الأكثر شانا، أما إذا حدث غير ذلك فإن التوطئة تقوم مقام الغاية وتصبح نقطة البداية هى نقطة النهاية. ولذلك يقول أرسطو فى كتاب (الأخلاق النيقوماخية) "فإن النقص ليس من قبل السن أو بها بل من قبل العادة والخلق " ولذلك يستقبح من الشيخ التصابى. لتباعد ما بين سنه وسن التصابى إذا يفصل بين السنين سن الكهولة التى تتميز بالحكمه والعقل وجودة الراى وحسن المشوره كما يستحسن من المحتلمين اللعب بالسلاح لانه مجال الجد، ومن الشاب المرح والهزل لأنه أول أفعال الروية.

فإذا حاول الفرد فى أى مرحلة أن يتقدم سنه لم يكن ذلك شيئا طبيعيا بل اشبه بالصناعة. ويضرب لنا ابن باجة مثل الوقار والمشورة فى الصبى فيقول " إن ذلك إما عن نقص فى الطبع حنى إذا قام به الإنسان لا يلبث أن يخمد سريعا. وقد يحدث من أولاد ذوى الأحساب فيظهرون ذلك الوقار من غير أن يكونوا أهلا له بل أظهروه تشبها " بأهل الوقار الذين يحيطون بهم فوقارهم فى هذه الحالة وقار مصطنع لا يلبث أن يظهر على حقيقته فاذا كانو بارعين فى اظهار هذا الوقار وخدعوا الناس حنى ظنوا أن ذلك هو الفضيلة كانوا هم أساس المدن الفاسدة وعلى أكتافهم تنهار المدن"(٣١).

د - تصنيف الأفعال طبقا لغاياتها:

تختلف الأفعال الإنسانية من ناحية أخرى طبقا للغاية التى ينشدونها على أن مرجع هذه الأخلاق إنما هو إلى طبائع الناس مما يجعلهم مراتب، بعضهم فوق بعض فمن الناس من يجعل توطئة فعله تقوم مقام الغاية. ومنهم من يتابع الفعل مارا بمراحله المختلفة حتى يصل إلى الغاية المنشوده هذا الاختلاف كما ذكرنا هو الذى يجعل زيدا معدا بفطرته لأن يكون إسكافيا، وعمرو معدا بفطرته لأن يكون رئيسا(٣٢).

ولقد اهتم ابن باجة بدراسة موضوع الغاية فى كثير من رسائله "كرسالة الوداع -والاتصال -تدبير المتوحد وله رسالة خاصة تسمى باسم "فى الغاية الإنسانية " كما اننا نجد أن هذا الموضوع قد لفت نظر الفارابى من قبل ودرسه دراسة وافية مما جعل ابن باجة يقول. . . . . الغاية التى ينتهى الطبع بالسلوك إليها، فقد وصفها وأطال الوصف فيها من تقدمنى واحد من وصفها وكرر القول فيها أبو نصر ومكانه من هذا العلم مكانة "لكن ذلك القول لا يجعلنا نعتقد أن ابن باجة قد أخذ عن الفارابى قوله فى الغاية لأن ابن باجة يعقب بعد ذلك بقوله " . . . لكن لا أجد من جميع كتبه التى وصلت الأندلس هذا النحو الذى وقعت عليه. . . فإنى وجدت لأرسطو فى الحادية عشر من الأخلاق ذلك غير أنه مجمل جدًا لا يمكن من الاكتفاء به"(٣٣).

ويصنف ابن باجة الغاية عمومًا إلى صنفين: غاية رئيسية، غاية مرؤوسة. فما هى إذن الغايات المرؤوسة وما هى الغايات الرئيسة؟.

قبل أن نحدد هاتين الغايتين نجد ابن باجه يحدد لنا أن طلب الغاية إنما هو من فعل النفس النزوعية الذى يعرف الشوق. ولما كانت النفس النزوعية تستعين ببعض الصور الخيالية من أجل الوصول إلى أغراضها متنقلة من حال إلى حال كانت هذه الحركة تسمى نشاطًا وعدم هذا الاشتياق يسمى مللاً أو

كسلاً فإذا ما تحرك الإنسان عن هذا الشوق كان تحركه من جهة أنه حيوان خيالاته إنسانية وكان فعله فعلاً حيوانيًا لأنه يفعل الفعل تشوقًا إلى أن يفعل فقط أما إذا فعل الفعل ليحصل منه غرض آخر وهو نفع ذلك الفعل فقد كان ذلك عن الرأى وليس النزوع "وأما الرأى فهو أن يفعل ليحصل منه غرض آخر وهو نفع ذلك الفعل"(٣٤) "واتصف فعله بالإنسانية لأن من خصائص الرأى أنه يحرك إلى ما هو دائم بذاته وإلى ما هو دائم بالتكثر فإذا ما كان دائمًا بالتكثر نزلت غايته منزله التوطئة وأصبحت توطئته لغاية أخرى وهكذا إلى ما لا نهاية فلا بد وأن تكون هناك غاية تراد لنفسها وهى التى إذا حصلت أكتفى بحصولها، فما هى إذا الغايات المرؤسة؟

الغايات المرؤوسة إذن هى التى تكون عن النفس النزوعية مثل استعمال الأغذية والدثار والمسكن. . . إلخ وهذه الغايات ليست نبيلة ولا جليلة ولا هى كمال فى أى سيرة من السير. فإن الجلال والكمال عند هؤلا هو تملك النفس النزوعية وإطلاق وثاقها ولذلك يموت من حصلت له هذه الرتبة من الملوك الغابرين الذين ملكوا أكثر المعمورة، ولم يستفيدوا من أعمالهم وأعمارهم وقدرتهم الممتدة القاهرة ويسارهم شيئًا أصلاً ولذلك يموت أكثرهم متأسفين على ما فقدوه وما كانوا عليه فإذا كان هذا هو حال الملوك فما بالك بحال من دونهم وهؤلاء تحركهم صورهم الجسمانية أو الروحانية الخاصة(٣٥).

الغايات الرئيسية:

والغايات الرئيسية عند ابن باجة من خصائصها أنها أبدية غير خاضعة للكون والفساد وهى إما إلهية صرفة، أو عقلية وهى أيضًا إلهية لأن الفعل الذى يكون بحسبها هو فعل وليد الحكمة والرأى وأنها إما المعقولات أو واحد منها. فإذا كان الفعل الإنسانى نحو هذه الغاية كان عن الرأى وكان عن شىء أبدى، وأصبح هذا الفعل أبدًا بذاته وهذه الغاية هى غاية فى حد ذاتها

وليست توطئه إلى غاية أخرى، والذين يجعلون كدهم هذه الغاية فهم الأفاضل دون شك[٣٦] "فأما من يفعل الفعل لأجل الرأى والصواب ولا يلتفت إلى النفس البهيمية ولا ما يحدث فيها فذلك الإنسان أخلق به أن يكون فعله ذلك إلهيًا من أن يكون إنسانيًا"[٣٧].

ومن أصناف هذه الغاية: العبادة التى يبتغى بها الإنسان رضى الله ومنها النظر العقلى الذى ينتهى بالاتصال، ومنها العلم الحق الذى هو أشرف ما يصبو إليه الإنسان.

وقد يعتقد البعض أن تكرير الفعل فيه نوع من الدوام خاصة الفعل المتكرر عن النفس النزوعية فلذلك يحق أن تكون غاية فعله رئيسة وليست مرؤوسة ولكن ابن باجة ينفى ذلك ويقول إن تكرير الفعل عن النفس النزوعية يكون أشبه بفعل النجار إذا أعاد الضرب بالقادوم فهو تكرير للفعل ولا يمكن أن يتصف بالدوام. والفرق بين الفعلين كالفرق بين المتعبد والمرائى فإن كلاهما يرفع ويخفض ويتلو، لكن فعل المتعبد صلاة، وفعل المرائى ليس صلاة أصلاً بل يحاكى ولذلك يقال لفعليهما صلاة بنحو من الاشتراك[٣٨].

٢ - مراتب الحياة الأخلاقية:

بعد أن استعرضنا حياة الأفراد وأفعالهم وغاياتهم، والصور التى ينشدونها فإننا نستطيع أن نحدد مراتب ثلاث للحياة الأخلاقية بحيث تصبح هذه المراتب دالة على نمط السلوك الذى يتبعه الأفراد والغاية التى ينشدونها.

أ - المرتبة الجسمانية الخالصة:

هؤلاء الأفراد الذين يمثلون تلك المرتبة لا يبالون بصورهم الروحانية وليس لديها عندهم أى قدر وذلك لإفراط جسمانيتهم وعمل أمثالهم يتقطع بثبوت شرف الإنسان ولذلك ذمهم أكثر الكتاب والشعراء. وهؤلاء هم الذين

أخلدوا فى الأرض ولذلك لا يمكنهم أن يـدركوا شيـئًا من الغـاية القـصوى ولذلك فلا يوجـد جسمـانى واحد سعـيد(٣٩). وهم كما يقـول ابن باجة، يبـذلون أجسـامهم لأجسـامهم ويـؤثرون حالاً جـسمانيـة على حـال أخرى جسمانية "(٤٠).

ولذلك كـان هؤلاء يفـضلون اللذة الحـسـيـة على سـائر أنواع اللذات ويعتـبرون أن السعادة القـصوى عندهم هى تحقـيق تلك السعادة الحسـية ولا يمكن أن تكون اللذة هى الخـير الأقـصى للإنسان لأن الإغـراق فى ممارستـها يجلبب له الضرر والألم.

٢ - المرتبة الجسمانية الروحانية:

وهذه المرتبة تعد أعلى من المرحلة السابقة وتحوى داخلها مرتبتين بحسب تغليب الصورة الروحانيـة أو عدم تغليبيها. وبقدر سـيطرة أحد الجانبين على الآخر يتصف الإنسان أما بالشـرف وإما بالخسة. إلا أن هؤلاء يمكن أن يكون منهم فئة تبـغى الكمال فقط فتـقصد إلى الفضائل الفكـرية، أو تبغى الالتذاذ فقط فنقـصد إلى الفضـائل الشكلية كالسـخاء والنجدة وحسن المعـاشرة، أو الفضائل المظنونة كاليسار وإفراط الغيرة.

فإذا قصد الإنسان الفعل وقصـد منه الانفعال فعمله هنا شوقى إن طلب به الكرامة، أو يجـرى مجرى الشوقى إن طلب منه الخـشوع دون أن يظن به الكمال(٤١).

وأفراد هذه الفـئة هم الذين ينطبق عليهم الحديث الشـريف "من كانت هجرته إلى الله فـهجرته إلى الله، ومن كانت هجـرته لدنيا يصيبـها أو امرأة ينكحها فهجرته لما هاجر إليه".

فإذا كانت المرتبة الأولى لاهم لها إلا إشباع غرائزها والالتذاذ بالأشياء المادية فقط، فإن هذه المرتبة بقسميها ترمى إلى الفضائل والأعمال التى يرجى من ورائها نفع(٤٢).

٣ - المرتبة الروحانية العقلية (مرتبة الحكماء):

ومن يبلغ هذه المرتبة يكون لديه الاستعداد لتلقى المعارف بواسطة العقل الفعال كالنبوة والأحلام الصادقة. والصور المعقولة ولذلك كانت هذه المرتبة غاية فى حد ذاتها وليست توطئه لغاية أخرى، والفرد المتوحد لكى يصل إلى تمام هذه الغاية يجب عليه أن يتصل بأهل العلم ويرتقى بالعلوم النظرية التى تحقق له كمال ذاته "فيضئ لمن حوله كالنور"(٤٣). وهذه المرحلة أيضًا تتضمن مرتبتين بحسب تغليب الروحانية على العقل أو العقلية على الروحانية ولا شك أن المرتبة التى تغلب عليها العقلية هى أسمى المراتب الأخلاقية.

فإذا كان الروحانى يجب عليه أن يفعل بعض الأفعال الجسمانية لكن ليس لذاتها، ويفعل الأفعال الروحانية لذاتها. فإن الفيلسوف يجب عليه أن يفعل كثيرًا من الأفعال الروحانية لكن لا لذاتها، ويفعل جميع الأفعال العقلية لذاتها. فهو بالجسمانية موجود، وبالروحانية أشرف، وبالعقلية هو إلهى فاضل فذو الحكمة ضرورة فاضل إلهى. وهو يأخذ من كل فعل أفضله ويشارك كل طبقة فى أفضل أحوالها الخاصة بها وينفرد عن أفراد كل طبقة بأفضل الأفعال وأكرمها حتى أنه يصبح فى استطاعته بلوغ الغاية القصوى وهى غاية الغايات. وهذه المرتبة لا يصل إليها إلا الحكماء(٤٤).

الفضيلة والرذيلة:

يربط ابن باجة بين الأفعال الإنسانية من جهة وبين كمالها من جهة أخرى، فإذا كانت الأفعال منها بهيمية ومنها إنسانية، كانت الكمالات منها فكرية وهو يعنى بالكمالات هنا المعنى الأخلاقى من حيث إنها فضائل(٤٥)

فإذا كان أفلاطون يفرق بين فضيلة شعبيــة تعتمد على العادة، وفضيلة فلسفية تعتمد على التأمــل. إلا أنه يحتقر الفضيلة الشعبيــة القائمة على العادة، وإذا كان أرسطو فى مذهبــه الأخلاقى يحترم تلك الفضيلة القــائمة على العادة بل أنه يعــتبر أن الفــضيلة لا تــكون فضيــلة إلا متى أصــبحت عادة تــصدر عن صاحبها حتى يجد فــى مزاولتها متعة أو لذة(٤٦) فإن ابن باجة يقسم الفضائل إلى:

١ - فضائل شكلية (نفسانية أو خلقية):

وهى الفضائل التــى تتعلق بالطبيعة الحــيوانية للإنسان بحــيث إنها تقوم على إخــضاع شــهوات الإنســان وأهوائه لسلطان العــقل. من هذه الفضــائل الســخاء والنجــدة والألفة وحــسن المعــاشرة والرفق والتــودد والأمانة ومنهــا الفضائل المظنونة كاليسار وإفراط الغيرة والأنفة والحيوان قد يشارك الإنسان فى هذا النوع من الفــضائل(٤٧)، لكن هذه الفــضائل لا توجد إلا لأنــواع فقط. كالنجدة والحيــاء الموجودين للأسد فهذه الفضائل ليــست لأسد واحد بعينه بل لكل أسد.

ومن خصائص هذا النوع من الفضائل أنها خادمة ومعدة لأن يعقل عنها إلا أنها توصف بأنها تشرف الموضوف ولا يشرفها ولذلك قد يظن البعض أنها الغاية القصوى ولكنها ليست كذلك، خاصة إذا ما فهمنا قول الفارابى "أقول أن إنسانًا علم جميع ما كتب أرسطو، غــير أنه لم يعمل بشئ مما فيها، وآخر عمل بها فيها، إلا أنه لم يعلم فيفضل العامل الجاهل على التارك العالم"(٤٨) إذ أن البعض قد يظن من هذا القــول أن الفضائل هى الغاية القصــوى غير أن القول يقتــضى عكس ما ظنوا. إذ أن بعض الفضائل علــى التوطئات بحث لا يكون لها غايات. كالصحة واليسار مع الفــضائل فالفاضل لا ينتفع بفضيلة ما

لم يكن فاضلاً والصحة قد يقتصر عليها من لم يكن معداً للعلم ولا لفضيلة نفسانية[٤٩] ولذلك يقول ابن باجة "والشهوة إنما تكون فاضلة إذا أرادت الأفعال التى تفيد الصحة"[٥٠].

٢ - فضائل فكرية:

وهى أحوال خاصة بالصور الروحانية الإنسانية لا شركة لغيرها فيها كصواب الرأى وجودة المشوررة وصدق الظن وبعض المهن والقوى التى تخص الإنسان كالخطابة وقود الجيوش والطب وتدبير المنزل وعن طريق هذه الفضائل يستطيع الإنسان أن يميز ما هو الانفع له والفضائل الفكرية يصنفها ابن باجة صنفين:

أ - فضائل عملية:

وهى مهن وقوى والمهن كل ما استعمل فيه البدن كالنجارة والكسافة وهذه أعدت لتخدم غيرها "فإن الصنائع المستعملة لغاياتها لو لم تكن الغاية موجودة لكان وجودها عبثًا وباطلاً فهى بالطبع خادمة"[٥٢] أما القوى فكالطب والملاحة والفلاحة وقود الجيوش وهذه القوى مرؤوسة فقود الجيوش إنما هو نحو صلاح المدينة لتعمل ما أعدت له والخطابة إنما أعدت لتعطى الإقناع فيما استنبطته الحكمة.

ب - فضائل نظرية:

وهى الحكمة وهى أكمل أحوال الروحانية الإنسانية وهذه الفضيلة أو الكمال توجد للعلم فقط ولكنها توجد بالعرض وإذا وجدت للحكمة بالذات كانت كمالاً بالإطلاق ولذلك كانت العلوم والأفعال الفكرية كلها كمالات بالإطلاق ولا تقال بتقييد فهى مختصة بالإنسان ولا يشترك فيها غيره وهى إما أن تعطى الوجود الدائم أو تصل به[٥٢]. وهذه الفضائل النظرية ليست معدة

أصلاً ليخـدم بها الإنسان شيـئًا ما بل إنما هى معدة ليـكمل بها المحرك الأول (النفس)[٥٤] وإذا كان ابن باجة قـد جعل الفضيلة النظرية فى القمـة فقد كان متأثرًا بآراء أفلاطون الذى ذكر أن الفضيلة النظرية فى القمة وأن الفضيلة الحقة هى التى تكون مصحوبة بالفكر سواء كانت متصلة بالملذات أو غير متصلة (إذ أن الفكر هو وسيلة لتطهير النفس)[٥٥].

كما كـان متأثرًا بأرسطو الذى ذكـر أن الفضيلة على نوعين: أحـدهما عقلى، والآخـر أخلاقى، فالفضـيلة العقلية تنتج دائمًـا من تعليم، إليه يسند أصلها ونموها ومن هنا يأتى أن بـها حاجة إلى التـجربة والزمان أما الفـضيلة الأخلاقيـة فإنها تتولد على الأخص مـن العادة والشيم، وهى عمـومًا ليست شيئًا بفعل الطبع فيكون كـالحجر الذى هو بالطب يهوى إلى أسفل ولا يمكن أن يصعد، وإنما العادة هى التى تنمى هذه الفضائل وتتممها[٥٦].

وإذا كان الإنسان هـو الكائن الذى يتميز عن سـائر الكائنات بأنه يجمع بين الآلات الإدارية والطبـيـعيـة مـعًـا. فإن قـدرته على حـفظ هذه الآلات والاهتـمام بهـا هو الذى يحدد اتصـاف فعله الأخـلاقى بالفضـيلة أو الرذيلة "فكما أن الإنسـان إذا عدم الآلات الإدارية لم يمكنه أن يعمل الأعـمال التى لتلك الآلات كذلك المحرك الأول إذا عدم الآلات الإرادية والطبيعية معًا. فإن النجار متى عدم القدوم وسائر آلاته لـم يصنع من الآلات شيئًا كذلك الإنسان إذا عدم البدن لم يباطش[٥٧].

فإذا كان أصحاب القنية الإدارية يمكن تصنيفهم إلى ثلاثة أصناف وهم:

١ - صنف لا يبالون بالآتهم ولا يـحرسونها حـتى تفسد. فـتضطرب أعمالهم ولا يستطيعون أن يقوموا بها متى شاءوا.

٢ - صنف يقف حياته ويجعل همه حفظ آلاته وصيانتها والعناية بها حتى أنهم لا يجعلونها فى خدمة منافعهم فيكونون عبيدًا لآلاتهم من غير أن يشعروا، بل ويتلذذ بوجودها غيرهم.

٣ - وهناك صنف يحرسها ويصونها فى وقت لا يحتاج فيه إليها ويبذلها ويستخف بها فى الحين الذى يستعملها ولا يبالى هل تلفت أو بقيت.

فأى صنف من تلك الأصناف يمكن أن يتصف بالفضيلة فى رأى ابن باجة وأيها يتصف بالرذيلة وما هو المقياس الذى نقيس به خيرية الأفعال أو شرها؟.

رغم أن ابن باجة لم يفصح عن ذلك إلا أننا نستطيع أن نقول أنه يتابع رأى أرسطو والغزالى فى أن الفضيلة هى الاعتدال(٥٨). وأنها وسط بين طرفين ولذلك نجده يصف أفعال الصنف الأول والثانى بأنها مذمومة وأفعال الصنف الثالث بأنها محمودة(٥٩). وهم الذين توسطوا بين الصنفين وكما يقول ابن باجة "قد أخذوا من كل قسم أحسن ما فيه وبددوا أسوأ ما فيه لأن كل واحد من الطرفين إذا أراد أن يقنع نفسه فى صواب عمله إنما يفرط عمله ويجده بالجزء المشترك بينه وبين المتوسط، فإذا اعتذر فإنما يعتذر من الآفة التى تلحق الطرف الآخر وهو المبدد ولذلك قال صاحب الشريعة عليه السلام "خير الأمور أوسطها"(٦٠).

فإذا كان ابن باجة يتابع أرسطو فى القول. بأن الفضيلة وسط بين رذيلتين هما الإفراط والتفريط والإفراط هو طرف الزيادة الذى يجب أن يبعد عنه الرجل الفاضل، أما التفريط فهو الطرف الآخر طرف النقصان أو التقصير بحيث نجده يقول إن إتلاف الصورة الجسمانية فى سبيل الروحانية إنما هو إفراط" ويشبه أن يكون هذا كله إفراطًا" فهو لم يتابعه فى الحكم على

الفضيلة بمقياس العقل ولذلك نجده يتابع الغزالى الذى جعل المقياس فى العقل والشرع معًا.

وإذا كان ابن باجة قد استخدم نظرية "الوسط الذهبى" فى الحكم على أصحاب القنية الإرادية فإننا نجده أيضًا يستخدم نفس الأسلوب فى الحكم على أصحاب القنية الطبيعية الذين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١ - صنف لا يبالى بجسده ولا بأعضائه بل يبذلها فى طاعة محركة الأول متى أمره مثل انهماك بعض الأفراد فى الملذات إرضاء لأمزجتهم مثل اللصوص وقطاع الطرق.

٢ - صنف يخاف من كل شىء ولا يرى أمامه سوى بدنه فهو يتوخى الحذر فى كل شىء ويخاف من كل شىء فلا ينهض عند ملمه، بل يطلب السكون والدعة مثل أن يعيش على نوع واحد من الطعام طيلة عمره خوفًا على بدنه من سائر الأطعمة.

٣ - صنف متوسط لا يبالى بجسده إذا ما قام بعمل من الأعمال مثل الشجعان يقول ابن باجة: فأما المتوسط فقد خلص من هذه العوارض وحصل له الأمن بمشاركة الحفاظ وحصل له العمل بمشاركة العامل. فقد أخذ من كل واحد من الطرفين ما يعترف به ذلك الصنف أنه مردود. . . . وكثيرًا ما يقع المتوسط موقع كل واحد من الطرفين، فيعمل بعمل ذلك الطرف وهو لا يشعر"(٦٢).

والصنف الأول والثانى يمثلان الإفراط والتفريط عند ابن باجة ولذلك كانت أعمالهم مذمومة. أما الصنف الثالث فأعماله محمودة لأنه أخذ من كل طرف وسطه.

ويقـول ابن باجة إننا نـحكم على فعل هؤلاء بمـا ينبغى أن يكون فـإذا كـانت غايتـهم مـا ينبغى كـانوا أفـاضل وسمى عـملهم رشـدًا وهؤلاء هم الراشـدون وإن لم تكن كـذلك كانت نقـصًـا ونذالة وسمـى عملهم ضـلالاً وعبثًا(٦٣).

وإذا كانـت الفضائـل عند ابن باجة تصنف فى ترتيـب تصاعدى يـبدأ بأقرب الفضائل إلى الأمور الدنيوية ويصعد بها إلى أن يصل بأقربها إلى العقل بل يصل إلى العقل بالإطلاق. فـإنه تبعًا لذلك يصنف مراتب الناس تـصنيفًا تصاعديًا وجعل لكل مرتبة درجة معـينة من الكمال فهو يقايس بين التمامات التى تنال بالأفعال الإنسانية مميزًا بينها وهذه التمامات هى:

١ - تمامات الآلات الصنـاعية: ولقـد عرفنا شيـئًا من خـصائص هذه الفضـائل فيـما سـبق وأنها تعد خـادمة غـيرها وعـرفنا أن غرض المكتسب لها إنما هو تفخيم أمره. بأنه أكتسب تلك الآلات فإن هذا التفخـيم فى واقع الأمر ليس إلا نوعًا من النقص يعـترى ذاته فإذا وصف زيد مثـلاً بأن له هذه الآلات. كان عدم هذه الآلات نقـصًا فى العظمة والجلال التى اكتسبـها من قبل. فكأن تمام هذه الفضائل ناقص لأنها خادمة(٦٤) يقول ابن باجة "فإن شئت أن تكون تسعى ليكون كـمـالك فى الآلات وذلك باليـسـار فـيكون كـمـالك كالحلم"(٦٥). إذ لا فرق بينه وبين النائم لأن الـنائم يظن أنه يطير وهو باق فى مرقده لم يبـرحه فهو يتأذى ويفـرح بما ليس موجود، كذلك هو أيضًا يفرح ويتأذى بما لا وجود له فى الحقيقة.

٢ - تمامات الأعضاء وكمالالتها (الصحة) وهذا النوع من الفضائل أعد ليـفعل عنه. ويكـتسـبهـا بالذات خـادم ومرؤس. وصـاحب هذه الفضيلة لا يجنى من ورائها شرفًا ولا كمالاً ولا ذمًا يقول ابن باجة

"وأما من له تمام الأعضاء وكـمالها وجود الصحة فـقط فذلك عبد بالطبع لأنه لا فـرق بينه وبين البهـائم بل هو فى حال مـا شر من البهيـمة لأن البهيمـة أعطيت قوة تدبر بها سلامتـها أما أولئك فلو عـدموا المدبر تلفـوا الجـسم وهؤلاء هم العبـيـد بالطبع وهم أهل ليكونوا عبيدًا لغيرهم"(٦٦).

٣ - أما ذوو الفضائل الشكلية فإن هؤلاء قد يكونوا نافعين بغيرهم لأن هذا النوع من الفضائل قـد يقتصر عليه فى كثـير من المدن، فتكون أنفسهم قـد كملت كمالاً ولكنهم فى الحـقيقة كمـا يقول ابن باجة "كشئ هم بالكمال ولم يكمل فلذلك هم فى رتبة يكاد صاحبها أن يكون كماله عـبثًا وباطلاً"(٦٧) والإنسان فى هذه المرتبة بخرج من مرتبة الإنسانيـة بالطبع إلى مرتبة أشرف الحيوان غـير الناطق. فإن صاحب الفضائل الشكلية يشبه من الحيوان غير الناطق ذوى الهيئات الكريمة كالأسد فى الجرأة والديك فى الكرم(٦٨).

٤ - وأما ذووى الفضائل العملية سـواء كانت مهن أو قوى: فإذا جعل الإنسان كماله بالـصناعات العملية كان بهذا الكمـال خادمًا لإنسان غيره لانه يدبر ولا يدبر، فهو متـمم لغرض غيره ومرؤوسًا بالطبع غـيرر أن القـوى أشـرف من المهن، حيـث يكون الإنسان أشـرف الشوق وأرفع الخدمة كالوزير للملك(٦٩).

٥ - ذوو الفـضـائل النظرية: فـالإنسان فى هـذه المرتبة يكـون كامـلاً بالكمال الذى يخـصه بما هو إنسان فيكون قـد كمل فى ذاته وليس يفتقـر فى الوجود إلى سواه. حيث يكون كل إنسـان وكل موجود كائن فاسد نحوه. ومن تحصل له هذه الرتبة من الكمال فقد أصبح فى حال لا تصارعـه فيها الطبيـعة ولا النفس البهيـمية ويصف ابن

باجـة هذه المرتبـة من الكمال بـقوله: "وهذه الحـال يفـوق النطق جلالها وشرفها ولذتها وبهاؤها وبهجتها. فإن الألم إنما هو من قبل الطبيعـة. واللذة من قبل النفس الناطقة فلبعدها عن الهـيولى تبقى بحال واحدة لا ضـد عنده. إلا أنها تتكثر وأما هذا العقل المسـتفاد فلأنه واحد من كل جهة فهو فى غاية البعد عن المادة... فهو إذن واحد أو على سنن واحـد فى لذة صرف وبهاء وسرور وهو مـقوم للأمور كلها والله عنه راض أكمل ما يكون من الرضى"(٧٠).

وهكذا يتبين لنا مما سبق أنه إذا كان ابن باجة قـد جعل الفضيلة أعتدالاً أو وسطًا بين طرفين فـقد أقر أن للإنسـان حرية الاختيـار والإرادة التى تحدد الوسط العدل ويحدد هذا الوسط العقل ولذلك كانت الحكمـة العقلية أساسية فى كل فضيلة أخلاقية.

٣ - السعادة واللذة:

ما هى الغاية القـصوى التى ينشدها الأفراد ويبـحث عنها علم الأخلاق أو ما هو الفعل الذى يقوم به صاحبه ويـستهدف من ورائه غاية فى حد ذاتها لا تفتقر إلى شىء آخر.

اختلف الناس فى تحـديد هذه الغاية فالبـعض يرى أنها فى تحقيق أكـبر كسب مادى والبعض الآخر يرى أنهـا فى حفظ الإنساب، لدنه بحيث يصبح كامل الصحـة، البعض منهم رأى أنها فى حياة التأمل العـقلى وبعضهم رأى أنها فـى القرب من الله والاتصـال به سواء كـان الطريق الذى يصل بهم هو طريق القلب أو العقل ولقـد اختلفت وجهات النظر فى أمر الغـاية القصوى، لاختلاف مراتب الناس كما مر بنا.

فإذا استعـرضنا مراتب الأفراد والأفعال الخاصـة بكل مرتبة أمكن لنا أن نحدد نوع الـلذة التى تتوافق مع كل فـعل من هذه الأفعال، ولما كـانت اللذة

عند ابن باجة هى "تحقيق كمال الفعل وقد وافق طبيعة الأشياء" فإن اللذة بهذا المعنى لا تفترق عن السعادة فما هى إذن أنواع اللذات التى تتحدد على أساسها الغاية القصوى (السعادة الكاملة) وما هى طبيعة اللذة؟.

أنواع اللذات:

١ - لذات طبيعية (لذة الملموسات): وهى لذات الشهوات البدنية كالالتذاذ بالحار والبادر المحيطين بالإنسان، وكالمأكولات والمشروبات والالتذاذ بأنواع الأطعمة والشرب والنكاح وهذه اللذات توجد بالطبع وبالذات عند تقدم أضدادها فإن الجوع والعطش يتقدمان الأكل والشرب ومتى كان أحدهما أشد وأكثر كانت اللذة أكمل وأتم وعلى حسب فتور هذين تنتفى اللذة وتوجد أقل ومن خصائص هذا النوع من اللذات أنها لا يمكن أن تكون متصلة لأن أضدادها يجب أن تتقدم فتوجد فكأن محرك هذه اللذة هو الباعث ولذلك تتصف بالتغير وعدم الثبات.

ولنتساءل هل هذه الأنواع من اللذات يعد فضيلة؟ يقول ابن باجة" أما من قصد اللذة المحسوسة فالإجماع على ذمه وخطئه بالإطباق على تخسيسه وتسفيهه. . .

وأما من قصد سائر أصناف اللذة كالغلبة والالتذاذ بالجاه وسائر الالتذاذات فإن آراء الناس تختلف فى ذلك. فطائفة تذم هذه وتحمد تلك وطائفة تذم تلك وتحمد هذه"(٧٣).

٢ - لذة المعقولا وما يجرى مجراها: كالالتذاذ العقلى وهو الالتذاذ بالعلوم وكالالتذاذ بالتخيل وهو الالتذاذ بالأحاديث والهزل وكالالتذاذ بالحواس وهو الالتذاذ بحاستى البصر والسمع. . . ولنتحدث عن كل صنف:

أ - لذة العلم: يقول ابن باجة إن العلم له لذتـان ضرورة إحداهما تعـقب التشـوق المحـرك لان الفرد يتـعلم بتـشوقـه إلى العلم والتشـوق ألم وهذا التلذذ يشبـه التلذذ البدنى لأن الصـحة إنما تكمل البدن، وكذلك العلم إنما يكـمل النفس الناطقة أما اللذة الأخرى والموجـوده لدى العلم فهى اللذة التى يـجدها كل من علم شيـئًا وهذه اللذة ملازمـة للعالم دائمًـا وهى لا يتقدمـها ألم(٧٤).

ب - أما اللذة الحسية فهى كـمال الحس بالمحسوسات الملائمة وهذه اللذة تظهر بصورة واضحة فى البصر والسمع فإذا أبصرنا مرأى حـسنا وقع الالتـذاذ بما أبصـرناه دون أن يتـقـدم ذلك ألم بما أبصرناه وكـذلك السمع لكن قد يقع فى السـمع التذاذ أو تالم مثل سـماع الأغانى المحزنة والملاحـظ على هذين النوعين من اللذات أنه لكى تتحـقق لابد وأن يوجد التشوق وهذا الـتشوق يعرض للمعـلوم والمتخيل والمحسوس. لكن لذة الـعلم تفترق عن اللذة الحـسية بـأن من يطلب العلم لا يطلبه للـذة فى حد ذاتهـا لأن اللذة ربح "إذ أن كل لذة هى أبدًا كظل لشىء آخـر وهى أبدًا ربح شىء آخـر مع حـصـوله وهى من ذلك الشىء كـالظل اللازم فـمن طلب العلم لـلذة كمـن يطلب من الأكل والشرب الالتذاذ بما لا يصح به جسمه فكما أن هؤلاء يصحون بالعـرض كـذلك هؤلاء يكملون بالعـرض وكـذلك من طلب العلم لأجل الكرامة فـقد طلبه لا لأجل مـا هو غاية بل لأجل عرض يلزمه كالريح"(٧٥).

٣ - لذة العلم الأقصى: وهى لذة التصور العقلى وهو جود العقل المستفاد وهذا النوع من اللذات يفوق النطق جلالها وشرفها ولذاتها وبهاؤها وبهجتها(٧٦).

وهكذا نجد أن اللذة قد تكون جسمانية وقد تكون روحانية حسب تقسيمة لأنواع اللذات إلى شهوانية وعقلية على أن اللذة الحقيقية ليست هى اللذة الحسية وإنما هى اللذة التى تتحقق للإنسان بتحرره من الحواس ورفضه لعالم الحس فتصير نفسه مفارقة لتلك الأمور المادية ويحقق كمال ذاته باللذات العقلية التى تهفو نفسه إليها وحينما يصل إلى مرحلة يدرك فيها الصور دون الحاجة إلى حلولها فى مادة فيدرك مثل المثل، وجوهر الجواهر وبذلك يتوصل إلى فهم كنه ذاته بأنه كائن عقل حينذ يشعر بالسعادة القصوى التى كان يبتغيها وسلك فى سبيلها ذلك الطريق التأملى العقلى هذه السعادة إذن تكون لموجود متوحد بعيد عن مفاسد الحياة ومفاتنها حتى لا يحركه إلا العقل ونلاحظ أن هذه النتيجة الأخلاقية التى توصل إليها ابن باجة قد سبقه إليها الفارابى وقد كانت السعادة فى رأيه تتحقق عندما تصير نفس الإنسان من الكمال فى الوجود بحيث لا تحتاج فى قوامها إلى مادة وذلك أن تصير فى جملة الأشياء البريئة عن الأجسام وفى جملة الجواهر المفارقة للمواد وأن تبقى على تلك الحال دائمًا(٧٧).

السعادة القصوى:

وهكذا نجد أن السعادة القصوى (عند الفيلسوف) المتوحد هى ثمرة تمام الإنسانية وكمالها وكمال الإنسان لا يكون إلا بصلاح عقله وعقله لا يصح إلا بالعلم والتجوهر بالعقول المجردة والسلوك إليها حتى يكون عقلاً مستفادًا وذلك لا يمكن إلا بواجبات متعددة أو جبها ابن باجة على المتوحد وقد عرضنا سمات هذه الواجبات سابقًا، يقول المستشرق الأسبانى أسين بلا

سيوس "يبحث ابن باجة عن السعادة القصوى ويرى أنها تتحق عن طريق تجريد الصور العقلية، وبينما نجد النفس متحدة مع الجسم إلا أن الإنسان يستطيع أن يتصل بالعقل الفعال ويتحد به بحيث يهبه المعارف. . . . فالسعادة إذن فى الفكر وعن طريق العلم والفلسفة والمتوحد إذا كان يستعين ببعض الأمور العادية لكى يستطيع مواصلة السير فى طريقة إلا أن هذه الأمور ليست شغلة الشاغل فواجب عليه ألا يجعلها همه حتى يمكنه تحقيق سعادته"(٧٨).

وهكذا فالفعل الإنسانى يصل إلى كماله بالمعرفة العقلية لا بالخيالات والأحلام الصوفية الدينية التى لا تبرأ من براثن الحس ولا بالفضائل الشكلية التى يسعى الإنسان ليكتمل بها يقول ابن باجة "كذلك فمن اقتصر على الفضائل الخلقية فقد اقتصر على وجود غيره فى أفضل أحواله كمن يقتصر على أن يكون فرسه كثير اللحم حسن المنظر فإذن ليس الاكتفاء بالفضائل الشكلية هو السعادة القصوى"(٩٤).

والنظر العقلى هو السعادة العظمى لأن كل معقول هو غاية لذاته ولا يسمو كل إنسان إلى هذه المرتبة من السعادة القصوى. إذ أن أكثر الناس لا يزالون يتحسسون طريقهم متعثرين فى الظلام حيث إنهم لا يرون من الأشياء إلا ظلالها الخفيفة ثم هم يزولون كما تزول الظلال ولكن بعضهم يرون النور ويرى عالم الأشياء حيث يدركون حقيقة ما يرون. وهؤلاء قليلون جداً وهم وحدهم السعداء الذين يبلغون حياة الخلود وذلك بأن يصيروا نورا(٨٠) يقول ابن باجة" . . وأما السعداء فليس لهم فى الإبصار شبيه إذ يصيرون هم الشىء فلو استحال البصر فصار ضوءاً لكان عند ذلك ينزل منزلة السعداء"(٨١).

كيف يصل المتوحد إلى السعادة القصوى:

يقول الفارابى: إن النفس تصل إلى السعادة حيث تكمل بمفارقتها للمواد وذلك يكون بأفعال إرادية بعضها أفعال فكرية وبعضها أفعال بدنية

وليست بأى أفعال أتفقت بل بأفعال ما محددة مقدرة تحصل عن هيئات وملكات ما مقدرة محددة"(٨٢).

فإذا كان الفارابى قد حدد السعادة القصوى للإنسان بشروط وواجبات معينة، فإن ابن باجة أيضًا قد أوجب على المتوحد عدة واجبات ينبغى له أن يأخذ نفسه بأدائها سواء فيما بينه وبين نفسه أو فيما بينه وبين أشباهه من المتوحدين أو فيما بينه وبين ربه. فما هى هذه الواجبات؟؟:

١ - على المتوحد ألا يفعل فعلاً بحيث تكون غايته منه الصور الروحانية لذاتها لأن هذه الصور ليست غائية البتة بالنسب إلى المتوحد ولو أنها وسيلة إلى تحقيق الغاية "ولذلك كل من يؤثر جسمانيته على شىء من روحانيته فليس يمكن أن يدرك الغاية القصوى وإذن فلا جسمانى واحد سعيد، وكل سعيد فهو روحانى صرف "ويقول أيضًا... كذلك الفيلسوف يجب أن يفعل كثيرًا من الأفعال الروحانية لكن لا لذاتها"(٨٣).

٢ - على المتوحد أن يعتزل الذين لا يقفون إلا عند هذه الصور الروحانية وحدها ولا يتعقلون إلا بها لأن مثل هذه الصور قد تترك فى نفسه آثارًا قد تكون حائلاً بينه وبين الحصول على السعادة الحقة وهذا يعنى بعبارة أخرى أنه يجب على المتوحد ألا يشارك الإنسان المادى ذا الصور الجسمانية ولا يخالط هذا الذى ليست له غاية إلا الصور الروحانية(٨٤). والمتوحد الظاهر من أمره أنه يجب عليه أن لا يصحب الجسمانى ولا من غايته الروحانية المشوبة بجسمية"(٨٥).

٣ - يجب عليه أن يصحب أهل العلوم من الفلاسفة والمشتغلين بالصور المعقولة الخالصة وإذا كان أهل العلم كثرة فى بعض المواطن وقلة

فى بعضهـا الآخر. ولعلهم لا يوجدون ابدًا أحيانًا. فـقد وجحب على المتـوحد فى بعض الأوطان والأحـيان أن يعتـزل من ليس من نوعه ولا من أهل العلم والا يخالط أحدا من أولئك وهؤلاء إلا فى الحدود الـتى تقضى بهـا الضرورة فـيقى نفـسه من مـصاحـبتـهم والاستماع للغوهم بحيث لا يحـتاج إلى أبطال أكاذيبهم وأن يقصد إلى المواطن التى تزدهر فيها العلوم وأن يتـصل بالمتقدمين فى السن ممن يمـتازون بعلمـهم وحكمتـهم وخـبرتهم وحنكتـهم مصطنعًـا الفضائل العقليـة حتى يصحب أكمل الرجال ممن يتمـتعون بالحكمة والحنكة(٨٦).

فإذا مـا التزم المتوحد بـتلك الواجبات وقام بهـا خير قـيام أمكن له أن يحقق الغاية التى كان يصبو إليها. والواقع أن ابن باجة قد ردد القول أكثر من مرة خاصة فى كـتابة، "تدبير المتوحد" بأن الغاية القـصوى والسعادة العظمى للمتوحد إنما هى فى الصـور المعقولة عقلاً خالصًـا وهى الصور التى يتخذها النظر موضـوعًا له كمـا أنها فى الأفعـال التى يستـعان بها على تحـصيل هذه الصـور. وعن طريق البحث النظرى الـعقلى يصل المتـوحد إلى هذه الصـور النظرية التى تنطوى فى داخلها على الكمال والتى لهـذا سميت بمعانى المعانى والتى أرفعها العقل المستفاد الذى هو فـيض من العقل الفعال كما أن به يتعقل المتوحد ذاته مـن حيث هو وجود عقلى فإذا تحـقق الفعل الإنسانى للمـتوحد بهـذا الوجود العـقلى على هذا الوجه الذى يعـقل فيـه ذاته وذوات العـقول الأخرى وكل المعقـولات فقد تحقق بالاتصال بالعقل الفـعال وتلك هى أقصى غاية من غايات الكمال.

ونود أن نشير إلى أن فكرة ابن باجة فى رد السعادة القصوى إلى مزاولة التأمل العـقلى قد سبقـه إليها أرسطو وانتـقلت عن طريقه إلى سائر فلاسـفة

الإسالم كـالفارابى وابن سينا فـالسعادة عند الفارابـى كما يقول فى "مـدينته الفاضلة" هى الخـير المطلوب لذاته وهى لا تطلب أصلاً لينال بهـا شىء آخر وهى بريئة عن الأجسـام ولا تحتاج فى قوامهـا إلى مادة وتنال بأفعال بعـضها فكرية وبعضـها بدنية. . . وتقـوم السعادة فى اتصـال الإنسان بربة. . . إلخ. ولقد سـرت هذه الأفكار كما يقـول الدكتور "تـوفيق الطويل" إلى فلاسـفة المشرق والمغـرب من ابن سينا إلى ابن باجة وابن رشد وغـيرهم وهى عندهم تجى بالتـأمل والـزهد وإن كـان التـأمل يعـد غـاية فى ذاتـه عند فـلاسـفـة الإسلام(٨٦).

وإذا كان ابن باجة قد جـعل متوحده يعتزل المجـتمع فى بعض الأحيان كما ذكرنا سابقًا فإن هذا فى رأينا لا يعبر عن نزعـة تصوفية كما اعتقد بعض الباحـثين وإنما أكبـر الظن أن ابن باجة قـد أراد بهذه الخلوة أو العزلة اعـتزال المتوحـد تفرغًا للتأمل العـقلى لأن بلوغ الغاية القصـوى عن طريق التأمل إنما يتطلب أن يبعد الفيلسوف عن كل مشـاغل الحياة وأن يقف نفسه على الأمور التى يمكن بواسطتها الاتصال بالملأ الأعلى. وحجتنا فى ذلك أن ابن باجة لم يكن من أولئك الذين يمارسون التصوف عملاً أو علمًا فى حياتهم كما أنه قد ناهض الصوفـية وخـاصة الغزالى ونقـد طريقتـهم التى تعتـمد على الأوهام والخيالات. ومـن ناحية أخرى نجـد أن نصوصه الفلسفـية تكاد تخلو من أى إشارة إلى إساليب التـصوف من زهد أو تقشف أو عبـادة أو مجاهدة مما يؤيد وجهة نظرنا.

طبيعة اللذة - أو خصائص اللذة:

إذا كان ابن باجة قد ميـز بين نوعين من اللذات لذات جسدية تأتى عن طريق الحواس، ولذات فكرية طـريقها العقـل فلا شك أن كل نوع من هذين النوعـين له خـصائص مـعـينة بحيث لا تـنطبق على النوع الآخـر فمـا هى

خصائص كل نوع منها؟؟ وهل يعنى ذلك أن كلاً منهما مختلف تمام الاختلاف عن الآخر بحث لا يكون هناك رابط أو أمر يجمعها؟؟ فى الواقع لا لأن اللذات أيًا كانت:

١ - لها طبيعة معينة وهى أنها تجمع بين الناحيتين الإدراكية والنزوعية سواء كانت اللذات حسية أو عقلية أما أنها تتصف بالإدراك فذلك لانها فعل أو تحقيق لفعل فإذا أتصل الفعل حصلت لنا اللذة الخاصة به لا محالة فنحن نطلب إتقان الفعل لا اللذة ولذلك ينفى ابن باجة أن تكون اللذة غاية مما سنوضحه فى نقده للغزالى فيما بعد... كذلك تتصف اللذة بالحركة لأن أساس كل لذة ميل أو شهوة أو تشوق "... والتشوق إضافة، والتشوق قد يقع بخيال ويقع بالفكر. ليس للحيوان غير الناطق غير تشوق الخيال وهى أقصى مراتبه وأما التشوق الفكرى وهو تشوق الصواب فإنما هو للإنسان خاصة وقد يتقابل هذان التشوقان"(٨٩).

فاللذة إذن مضافة للفعل والإنسان يقصد جوهر الفعل أولاً ثم اللذة كشئ عرضى بعد تحقق الفعل فإذا كان الفعل موافقًا للطبيعة كان ذلك لذة وإذا لم يتفق مع غاية الطبيعة أنتج لنا ألمًا(٩٠).

٢ - وقد يتساءل البعض عن طبيعة اللذة وهل تتصف بالتغير أم الثبات وهل هى متصلة أم متقطعة؟؟ يقول ابن باجة إننا نقول أن اللذة متصلة إذا كانت واحدة بالعدد موجودة فى زمان لا يعلم طرفاه أو فى زمان لا طرف واحد له إن أمكن ذلك ونقول ثانيًا أن اللذة متصلة ما دام الموضوع لها موجودا، ونقول ثالثًا أن اللذة متصلة

ما دام الفاعل لها موجودًا ونقول أخيرًا أن اللذة متصلة متى كان الإنسان يلتذ إذا أراد أن يلتذ.

فإذا عرفنا أن هناك نوعين من اللذات: لذات طبيعية. ولذات عقلية فأى هذين النوعين يكون متصلاً؟؟

يرى ابن باجة أن اللذات الطبيعية لا يمكن أن تكون متصلة لأن أضدادها يجب أن تتقدمها فتوجد بوجودها.

أما اللذات العقلية فلما كانت أضدادها لا تتقدمها فقد أمكن فيها الاتصال لكن الاتصال ليس فى جميع أنواع اللذات العقلية. فالالتذاذ بالحواس لا يمكن فيه الاتصال لأن موضوعها الأخير وهو البعيد لا يمكن أن يوجد دائمًا ولا لو أمكن لأن موضوعات الحس ليست دائمة من جهة أخرى. فلذلك لا يمكن فيها الاتصال(٩١).

كذلك لا يمكن للذة الخاصة بالمتخيلات أن تكون دائمة لأن اللذة إذا كانت توجد للحس المشترك فى حالة القوة كاللذة فى الأحلام إلا أن ذلك لا يمكن أن يتصل لأن الحافظ ليس بموجود. ولا أيضًا المظنونات فإن الظن يمكن أن يستحيل فتستيحل معه اللذة.

وأما العلوم فلا يمكن فيها اتصال لأنها يقين فزوالها يكون بزوال حالة الموضوع كالنسيان وبتعرى الموضوع عنها.

وأما لذة العلم الأقصى فهى اللذة الوحيدة التى تتصف بالدوام والاتصال لأنه لا يمكن فيها النسيان "فإذن ليس يمكن فى شىء من اللذات اتصال اللهم إلا فى لذة يكون موضوعها الأول وهو الموجود وتكون فيه الصورة هى المصور وليس ذلك شىء ينسب إلى الأجسام الكائنة الفاسدة إلا فى العقل المستفاد... ولذلك هو دائمًا(٩٢).

٣ - لم يبق لنا من خصائـص اللذة إلا أن نحدد هل هى غاية أم لا؟؟ يرى ابن باجة أن اللذة لا يمكن أن تكون غاية وهو هنا ينحو منحى أرسطو الذى ينكر أن تكون اللذة بانواعـها غـاية ويعتبـرها نتيـجة لازمة لحياة الفـضيلة لاسيما الفضيلة المثلى التى تقـترن بنمط الحياة الأمثل وهو النمط النظرى فهـذه هى السعادة عنده(٩٣) ولذلك نرى ابن باجـة يناهض المتصـوفين خـاصة الغـزالى الذى يجعل الغـاية القصوى من علم الحق هى الالتذاذ حيث يذكر فى كتابه "المنقذ من الضلال" أنه شاهد عند اعتزاله أمورًا إلهية والتذ التذاذًا عظيمًا حتى قال "فكان ما كان مما لست أذكره" ولكـن هذه كلها كما يقول ابن باجـة ظنون. ودليله على أن اللذة ليـست غـاية أن لكل فـعل من الأفعال لذة تناسبه، فـإذا أتقنا الفعل حصلت لنا اللذة الخاصة به لا محالة فنحن نطلب إتقان الفعل لا الغاية "فإن كل فعل لم يدرك به الغـرض المقصـود فهـو عناء فـمن هذا ومن أشيـاء أحرى كـثيـرة أحصـيت فى مواضع كثـيرة يظهر من أمـر اللذة أنها ليـست غاية فكيف أن تكون قـصوى"(٩٤) ويستـدل ابن باجة بأن اللذة لـيست هى الغاية القصوى بدليل آخر وهو أنه إذا وصفنا اللذة غاية قصوى لم يكن لنا أن نقول لم نلتذ، أو لماذا نطلب اللذة؟ لأن اللذة لنا فى بعض أعمارنا غاية قصـوى وذلك فى سن النشوء، فإذا سألنا سائل لماذا نلتـذ كان السؤال مما يثـير الضـحك منه. إذ أن جمـيع الأمور الإنسانية إذا طلبناها من أجل أى شىء كـان فإنه يحب أن يبلغا بها إلى اللذة حتى إذا ما وصل إليها أنقطع السؤال لم كانت؟ لكن من تعقبنـا ذلك وجدنا أكثر أصناف الملذات تفـيد شئًا آخرًا غـير اللذة وبين أن تلك غايتها. وأننا إذا ما فعلناها ولم نلتذ بها لم يكن ذلك

باطلاً فإن كل فعل لم يدرك به الغـرض المطلوب فهو عناء ومن هنا يظهر أن اللذة ليست غاية فكيف أن تكون قصوى؟؟.

٤ - واجبات المتوحد:

ويمكننا أن نستـخلص مما سـبق أن غاية الأخـلاق عند ابن باجـة هى السعـادة القصوى التى يشتـاقها الإنسان ويسـعى إلى الحصول عليهـا وكل ما يسعى إليه الإنسـان هو فى نظره خير والسعادة هى أسمى الخـيرات وبقدر ما يسـعى الإنسان لبـلوغ هذا الخيـر فى ذاته تكون سـعادته كـاملة، ولما كـانت الأفعال بعضها ضرورية وبعضـها اختيارية فمن الواضح أن توضع السعادة بين الأفعال التـى يختارها المرء ويرغب فيـها لذاتها إذن هذه الأفعـال هى الأفعال المطابقة للفـضيلة وإذا ما رأى الإنسـان ذلك أصبح متوحـداً واستطاع أن يبلغ سعادته القصـوى وهى الاتصال بالعقل الفعال وتحصـيل الأمور الإلهية وهكذا فالفضيلة المثلى هى الفضيلة الفكرية والسعادة هى السعادة العقلية والكمال يتم بالعلم والنظر.

* * *